البيضاوي
فقيهاً وأصولياً

البيضاوي المشهور المغمور:

الإمام البيضاوي من كبار علماء المسلمين في القرن السابع الهجري ، وله شهرة عظيمة على جميع المستويات ، وله سمعة ذائعة ، وكتب مشهورة ، وشخصية لامعة ، فهو قاض وله مواقف مشهودة في القضاء ، وهو أصولي ، وكتابه في الأصول عمدة العلماء والطلاب وهو مفسر قدير ، وكتابه في التفسير منتشر بين المسلمين ، كما أنه فقيه شافعي لامع ، ومؤرخ بارز ، ونحوي وأديب ، ومتكلم ونظار ، وكتب في التوحيد وأصول الدين والكلام والمنطق والحديث الشريف والتهذيب والأخلاق.

وقد يبدو غريباً أن أبدأ مقالي عن البيضاوي لأقول: إنه العلامة المشهور المغمور ، فما هو السبب في ذلك؟

إن البيضاوي معروف لدى الجميع ، ومشهور على ألسنة الناس ، وله شهرة واسعة على المستويين العلمي والشعبي ، واسمه يتردد على كل لسان ، وكتبه نافعة معلومة ، ولم يغفل علماء التاريخ ترجمته وحياته ومصنفاته.

ولكن شخصية البيضاوي ، وتفاصيل حياته ، ليست واضحة في

الأذهان ، سواء عند العلماء ، أو طلاب العلم ، أو عوام الناس ، ولا يعرف أحد عنها إلا القليل القليل ، فما هو السبب؟

تبادر إلى ذهني بادىء ذي بدء أن السبب طول الزمان ، والفارق الكبير بيننا وبينه ، وأن سبعة قرون ونيفاً قد أسدلت الستار على حياته الخاصة ، وأزالت الهالة التي أحاطت به ، وبددت الأنوار التي أضاءت بيته ، فقصدت المراجع المختلفة والمصادر الأصلية ، لأبحث عن الواقع ، فعدت بخيبة الأمل ، وفوجئت بالحقيقة.

ذلك أن جميع كتب التاريخ والتراجم ذكرت اسم البيضاوي ، وترجمت لحياته باختصار ، وتناولت بعض الجوانب المحدودة ، وذكرت جل مصنفاته وكتبه ، وأثنت عليه الثناء العاطر ، وأشارت أنه من أسرة علم وفضل ، ولكنها لم تفصح لنا عن التفاصيل ، ولم تكشف لنا الخباء ، ولم ترفع لنا الستار ، ولم توضح الحقيقة الكاملة ولم ترو التفاصيل التي تشفي الغليل ، وتروي الظمآن.

فالكلام في مجمله مختصر وقصير ، وهو في معظم الأحيان مكرر ومنقول بشكل شبه حرفي ، ولا يزيد في أوسع المصادر عن صفحة ، وبقي الغموض مخيماً ، والسؤال مطروحاً عن النقاط التالية:

١ ـ لم تذكر هذه المصادر ولادته ، ونشأته ، وتربيته ، مع أنها أشارت إلى أنه نشأ في بيت العلم ، وأسرة الفضل ، وتفقه بأبيه ، وكان والده عالماً ، وكذلك كان جده ، وهو ما صرح به الإمام البيضاوي نفسه في مقدمة كتابه «الغاية القصوى» فقال: «فاعلم أني أخذت الفقه عن والدي المولى الصدر العالي ، ولي الله الوالي قدوة الخلف ، وبقية السلف ، إمام الملة والدين أبي القاسم عمر ، عمّر الله تعالى قواعد الدين بأسنة أقلامه ، وأصوبة أحكامه ، رحمة الله عليه ، وهو عن والده قاضي القضاة

السعيد ، فخر الملة والدين ، محمد بن الإمام الماضي صدر الدين أبي الحسن علي البيضاوي عن . . »[1] .

٢ ـ أغفلت كتب التراجم والمدارس التي ارتادها ، وأمكنة التعليم التي حصَّل منها ، وأسماء العلماء ، الذين أخذ عنهم ، والشيوخ الذين تردد إليهم ، والمحدثين الذين روى عنهم ، مع أن ترجمته المختصرة ، وآثاره العلمية تدل على أنه أتقن علوم الإسلام الدينية التي تتوقف على التلقي والسماع ، والأخذ شفاهاً على المختصين وكبار العلماء ، وإلا بقي الطالب منها على الشاطىء ، وتجنب الغوص فيها ، والسباحة في خضمها ، ليرضى بالمكث على سواحلها ، يتنعم بفيئها ، ويناله الرذاذ والرطوبة منها ، وهذا ما تجاوزه البيضاوي رحمه الله بالإجماع .

٣ ـ أشارت كتب التراجم والتاريخ إلى مكانة البيضاوي في التدريس ، وشهرته في التصنيف ، وشيوع كتبه ، ولكنها أغفلت نهائياً ذكر تلامذته ، والطلاب الذين تربوا على يديه ، وأخذوا عنه العلم ، ونقلوا كتبه ومؤلفاته ، ونشروا هذه المصنفات التي سارت بها الركبان ، ويستثني من ذلك ما ذكره العلامة ابن السبكي عرضاً عن شخصين تتلمذوا على البيضاوي ، وتفقهوا به .

ولذلك وصلت بعد المطالعة والدراسة ، والبحث والتنقيب إلى هذه النتيجة التي جاءت في استهلال المقال أن البيضاوي مشهور مغمور .

ولكن نسارع إلى تطمين القارىء الكريم إلى أن هذا الجانب المجهول عن البيضاوي ، والجزء المغمور من حياته ، لا يؤثر علينا في شيء ، ولا يضيره هو في شيء ، ما دام أن الجانب المشهور ، والجزء المضيء قد وصل كاملاً والحمد لله ، وشاع عرضاً وطولاً ، وأضاء الخافقين ، واستفاد منه الناس جميعاً .

---

(١) الغاية القصوى ، مخطوط ، ورقة ٢/٤ ، وانظر : مرآة الجنان ٤/ ٢٢٠ .

ذلك أن ولادة البيضاوي ونشأته وتربيته وتحصيله العلمي ورحلاته في طلب العلم لا يفيدنا اليوم إلا من جهة الشغف العلمي ، وحب المعرفة والاستطلاع، ورسم الصورة الكاملة عن حياته.

وإن إغفال شيوخه ورحلاته العلمية والمدارس التي تربى فيها لا يؤثر من قريب ولا من بعيد ، ما دام أثرها واضحاً وبارزاً في تكوين هذه الشخصية الفذة ، والعلم الشامخ ، والحجة في المعرفة ، والبحر في العلوم ، وهو البيضاوي.

كما أن السكوت عن تلاميذه وطلابه لا يغير من الحقيقة شيئاً ما دام تراثه قد حفظ ، وكتبه قد نقلت إلينا في معظمها ، وأن المسلمين شرقاً وغرباً ، عرباً وعجماً ينهلون منها طوال القرون السبعة الماضية ، وستبقى إلى ما شاء الله ، وقد عكف العلماء وطلاب العلم على دراستها ، والاستفادة منها ، ودارت عليها رحى العلم عدة قرون ، وتناولها المصنفون بالشرح والحواشي ، والاختصار والنظم ، والتعليق والتقريظ ، ونقلتها لنا الأجيال ، لتبقى منارة مضيئة تهدي السائرين ، وترشد السادرين ، وتجذب عشاق المعرفة إلى حوضها.

ولكن القسم المجهول من حياة البيضاوي ، الذي كنا نتمنى التعرف عليه ، ويعتبر إغفاله خسارة ، وهو سلوكه الإسلامي ، وأخلاقه الرفيعة ، ليكون قدوة لمن بعده في هذا الجانب ، ومجالاً للتربية غير المقصودة للأجيال اللاحقة ، ليسيروا عليها ، ويكونوا خير خلف لخير سلف ، وقد اقتصر المؤرخون على وصفه بالعبادة والزهد ، والورع والتقوى ، ولم يذكروا دليلاً على ذلك إلا في مجال عزله عن القضاء لشدته في الحق ، وتخوفه من المسؤولية والحساب ، كما سنرى.

وقد نقبت في جوانب حياته المكتوبة ، وآثاره المنقولة ، وأفكاره المسطورة لأعرف السبب في هذا الغموض عن حياته ، وقلت: لعله

العداوة بينه وبين خصومه؟! أم هو الحسد ممن دونه؟! أم هو التنافس مع العلماء ومن حوله؟! أم هو الاختلاف في الآراء؟! أم الصدام في الاتجاهات السياسية أو الميول المذهبية؟! أم هو التحامل من الفرق وأعداء الدين؟! فلم أعثر على جواب، ولعل كارثة القرن السابع الهجري، التي نكب بها العالم أجمع، والحضارة الإنسانية كاملة، والتي قضت على الخلافة الإسلامية، وهي سقوط بغداد على يد هولاكو، والغزو المغولي للعالم الإسلامي، وإشاعة الذعر والخوف، والنهب والقتل، والسرق والاغتصاب، وقتل الأبرياء، وإبادة العلم والعلماء، وقطع أوصال الدولة، وحرق المكتبات؛ هو السبب في الغموض الذي حلَّ على البيضاوي وأمثاله، فمن قدر الله عليهم أن يعيشوا تلك الظروف العصيبة، والنكبات الخطيرة، أعاذنا الله منها، وجنبنا الوقوع في أشراكها.

خطة البحث:

وبعد هذه الكلمة السريعة بين يدي البحث، رأيت أن أقسم الدراسة إلى قسمين:

القسم الأول: يتعلق بحياة البيضاوي الشخصية في الإطار الذي وصلنا، وضمن الدائرة التي نقلت إلينا عن اسمه ونسبه ولقبه وكنيته ونشأته وأعماله ووفاته.

القسم الثاني: في حياته العلمية عامة، وفي الجانب الفقهي والأصولي خاصة، لنتعرف على شخصية البيضاوي الحقيقية، بدراسة كتبه، وتحليل آثاره من خلال الإنتاج الذي خلفه، وليس من كتب التاريخ والتراجم، ولا ممن وصفه، وكتب عنه، ونقل من أخباره، وهذا الجانب في التعرف على البيضاوي أكثر فائدة، وأدق تصويراً، وأجلى بياناً.